كليـــة : الآداب

القسم او الفرع : قسـم التاريـخ

المرحلة: الثـانيـــــــــــــــة

أستاذ المادة : أ.م.د عمـاد كريـم عبـاس

اسم المادة باللغة العربية : تاريـخ الدولـة العثمانيـة

اسم المادة باللغة الإنكليزية : History of the Ottoman Empire

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربيـــة: الفتـح العثمانـي الأول لتونس

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية : The first Ottoman conquest of Tunisia

الفتح العثماني الأول لتونس :

بعد توحيد خير الدين للجبهة الداخلية في الجزائر رأى أنه من الواجب عليه في ذلك الوقت إنهاء حكم الدولة الحفصية الضعيفة التي توشك على الانهيار ، فقد كانت أعين شارلكان تتجه إليها مما يمثل أشد الخطر على النفوذ العثماني في شمال افريقيا . كان أبو عبد الله محمد الخامس (الحفصي) قد تقبل المجاهدين البحريين ومنحهم مكاناً في حلق الوادي ، وأجرى اتفاقاً ليظفر بنصيب من الغنائم الوافرة ، التي يتحصلون عليها عن طريق الجهاد ، وقد استمر في حكم تونس إلي أن توفى عام ١٥٢٦م ، فخلفه ابنه أبو عبد الله الحسن ، والذي اشتهر باسم مولاي الحسن) ، وقد عرف بسفاهته وكثرة سفكه للدماء وإهماله لأحوال البلاد ، لذلك ضجر السكان من كثرة مظالمه ، وكان يتوجب على خير الدين استغلال تلك الفرصة المواتية ، ليعمل على مد سلطان الدولة العثمانية إلى تونس .

وفي تلك الأثناء استدعى السلطان سليمان خير الدين الي استانبول عـــام ١٥٣٣م، ليعهد إليه بقيادة الأسطول العثماني والإشراف على تنظيمه وتطويره ، فبعد أن تولي أندريا دوريا قيادة الاساطيل الإسبانية ، علم سليمان أن خير الدين أكفأ من يتصدى له فمن له أن يتصدى لهذا القبطان الماهر غير خير الدين بربـاروسا.

منذ يوم دخول خير الدين استانبول عام ١٥٣٤م وتوليته قيادة الاسطول العثماني دخلت البحرية العثمانية عهداً جديداً من التنظيم والقوة ، فقد بدأ خير الدين بصناعة السفن بناءً على رغبته الخاصة ، فكانت تصنع خفيفة الوزن حتى تكون سهلة الحركة أثناء المناورة ، وذلك ما تميزت به كل معاركه البحرية ، فمهما كان تعداد أسطول الخصم كانت سرعة الالتفاف حول الأساطيل المعادية ثم ضربها بالمدافع عامل حسم في معارك خير

الدين البحرية ، وقسم سفن الأسطول بمهارة إلى وحدات تبعاً لحجمها وعدد المجدفين فيها وقوة مدافعها ، ولقد أشرف خير الدين بعد احتلال منصبه مباشرة على صناعة أكثر من ستمائة سفينة حربية من نوع (قادرغة) فغدا بذلك الحارس الأمامي للدولة العثمانية في البحر المتوسط.

كان أول أمر يتلقاه خير الدين من السلطان سليمان هو فتح تونس لقــد كانت هناك الكثير من العوامل أملت على السلطان سليمان القانوني الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلى تونس ، ومن أهم تلك العوامل الموقع الجغرافي في منتصف الساحل الإفريقي وتوسطها بين الجزائر وطرابلس وقربها من ايطاليا التي كانت أحد جناحي الامبراطورية الرومانية المقدسة (وكان جناحها الآخر اسبانيا) هذا إلى جانب مجاورتها لجزيرة مالطة ، مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية عداء للإسلام ، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية بين حوض البحر المتوسط. هكذا تضافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي بين السلطان سليمان وبين الإمبراطور شارل الخامس.

وهكذا غادر خير الدين استانبول على رأس قواته ، التي تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي عام ١٥٣٤م في نفس الوقت الذي كان السلطان سليمان يعبر فيه الأناضول متجهاً لغزو إيران وقبل أن يتوجه خير الدين بأسطوله لفتح تونس توجه إلى السواحل الأوروبية فهاجمها ونهبها ، وقصد بذلك نشر الرعب في نفوس الأوروبيين تمهيداً للاستيلاء على تونس وحتى يجبر الحكومات الأوروبية على توزيع قواتها على السواحل للتصدي له..

وبعد ذلك توجه خير الدين على رأس قواته إلي تونس فاستولى عليها عام ١٥٣٤م وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية ، وأنهى الحكم الحفصي بها ، كما سقطت في يده المدن الساحلية وتوغلت قواته جنوبا في الداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية، ولكن السلطان الحفصي مولاي الحسن قد تمكن من الهرب وألقي القبض على أنصاره الذين رغبوا بالمقاومة وتوجه مولاي الحسن بعد ذلك إلى الإسبان طالباً عونهم تذكر المصادر محاولات قام بها شارلكان لاستمالة خير الدين إلا أنها باءت بالفشل، فحاول عزل الجزائر عن استانبول عاصمة الدولة عن طريق احتلال تونس هذا بالاضافة إلى الخطر الذي تشكله تونس لمواجهتها ايطاليا مباشرة ، فكان الإمبراطور شارلكان يدرك جيدا معنى امتداد الحكم العثماني إلي هذا الاقليم الهام، الذي يشرف بشكل مباشر على المواصلات بين حوضي البحر المتوسط ، فضلاً عن قربه الشديد من أقاليم الدولة الرومانية من الناحية الشرقية ، هذا بالطبع غير تهديد النفوذ الاسباني في قواعده الباقية في الشمال الأفريقي ، وتشجيعاً للمورسكيين على مواصلة الهجرة والإستقرار بتونس إلى جانب الجزائر والمغرب. وكانت كل هذه العوامل كفيلة بتوجيه جهوده إلي تونس ، وإرسال حملة قوية لطرد العثمانيين وإعادة الحكم الحفصي الموالي له .. تحركت

الحملة من برشلونة عام ١٥٣٥م . وبالرغم من ضخامة حملة شارلكان ، فقد قرر خير الدين التصدي لها بكل قوته ، لكن مع شدة القصف المستمر والمركز من قبل الإسبان ، لم تتمكن قوات الريس خير الدين من استخدام المدافع فاضطروا للانسحاب ودخلت القوات الإسبانية تونس وعلى رأسها الامبراطور شارلكان ، حيث تقدم إليه سلطان تونس مولاي الحسن مع عدد كبير من أنصاره منحنيا أمام قدميـــــــــــــــــــه ، معلنا فروض الطاعة والولاء ، فقبله الإمبراطور وأحسن اليـــه.

وهكذا تمكن شارلكان من الاستيلاء على تونس ، بسبب التفوق العددي والخيانة العربية ، التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعه. وأقامت على أثر ذلك البابوية في روما احتفالات كبرى لوقوع تونس في يد العاهل المسيحي ، وقد وافق مولاي الحسن على أن يحكم تونس باسم شارلكان وتحت حمايته، كما تنازل عن ميناء حلق الوادي وغيره من المدن الهامة ، هذا بعد أن قامت القوات الإسبانية خلال يومين بسلب ونهب المدينة وقتل أكثر من ثلاثين ألف مسلم وأسر أكثر من عشرة آلاف الى جانب هدم المساجد والمدارس وإحراق الكتب والمخطوطات النادرة، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء ، فغدت المدينة خالية من الأهالي.